

## تفسير سورة النمل

وهي مكية

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طَسَّ نَيْكَ مَا يَنْتُ الْفَرَمَانِ وَكِتَابِ مُبِينٍ ﴾ ﴿ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يُعِيسُونَ  
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا لَمْ أَعْمَلْهُمْ  
فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِرُوا بِالْإِسْلَامِ فَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ ﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى  
الْفِرْيَاتِ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ ﴿

قد تقدم الكلام في « سورة البقرة » على الحروف المقطعة في أوائل السور .

وقوله : ﴿ طَسَّ نَيْكَ مَا يَنْتُ الْفَرَمَانِ وَكِتَابِ مُبِينٍ ﴾ : بين واضح ﴿ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

أى : إنما تحصل الهداية والشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقته ، وعمل بما فيه ، وأقام الصلاة المكتوبة ، وآتى الزكاة المفروضة ، وأيقن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال ، خيرا وشرا ، والجنة والنار ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبُشْرَى وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ الآية [ فصلت : ٤٤ ] . وقال : ﴿ لِيُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ [ مريم : ٩٧ ] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى : يكذبون بها ، ويستبعدون وقوعها ﴿ رَبَّنَا لَمْ أَعْمَلْهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أى : حسنا لهم ما هم فيه ، ومددنا لهم فى غيهم يتيهون فى ضلالهم . وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَقَلِّبْ أَعْيُنَهُمْ وَانصُرْهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ ﴾ الآية [ الانعام : ١١٠ ] ، ﴿ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِرُوا بِالْإِسْلَامِ فَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة ﴿ وَهُمْ لَمْ يُؤْمِرُوا بِالْإِسْلَامِ فَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ أى : ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر .

وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أى : ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يامحمد - قال قتادة : ﴿ تَلْقَى ﴾

أى : لتأخذ ﴿ الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أى : من عند حكيم عليم ، أى : حكيم فى أوامره ونواهيهِ ، عليم بالأمور جليلها وحقيها ، فخيره هو الصدق المحض ، وحكمه هو العدل التام ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [ الانعام : ١١٥ ] .

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا مَسَانِيكُ مَتْنًا بِعَبْرٍ أَوْ مَا يَكُومُ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ يَمْشُونَ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿ وَأَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى وَعْقَبٌ يَمْشُونَ لَا يَخْفَى لِيَّ لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسْتًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَنْقُورٌ رَجِيمٌ ﴾ ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ يَغْسَلَةً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فَيَسْجُدْ لَكَ بِرُغْوَةٍ وَأَنْتَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِتْمَمْتُمْ كَأَوْ

قَوْمًا فَتَقِيَنَّ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٨﴾ وَحَمَدُوا بِهَا وَأَسْتَفْتَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مذكراً له ما كان من أمر موسى عليه السلام ، كيف اصطفاه الله وكلمه ، وناجاه واعطاه من الآيات العظيمة الباهرة ، والادلة القاهرة ، وابتعثه إلى فرعون وملئه ، فجحلدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له ، فقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ ﴾ أى : اذكر حين سار موسى بأهله ، فاضل الطريق ، وذلك فى ليل وظلام ، فأنس من جانب الطور ناراً ، أى : رأى ناراً تاجح وتضطرم ، فقال ﴿ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاءَتِكُمْ مِنْهَا بَخِيرٌ ﴾ أى : عن الطريق ﴿ أَوْ آتِيَكُمْ بِسِهَابٍ قَبَسٍ لَكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أى : تستدفنون به . وكان كما قال ، فإنه رجع منها بخير عظيم ، واقتبس منها نوراً عظيماً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أى : فلما أتاها رأى منظراً هائلاً عظيماً ، حيث انتهى إليها ، والنار تضطرم فى شجرة خضراء ، لا تزداد النار إلا توقداً ، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة ، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعمان السماء . قال ابن عباس وغيره : لم تكن ناراً ، إنما كانت نوراً يتوهج . وفى رواية عن ابن عباس : نور رب العالمين . فوقف موسى متعجباً مما رأى ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ قال ابن عباس : تقدس . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أى : من الملائكة . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير . وروى ابن أبى حاتم عن أبى موسى رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل » . راد المسعودى : « وحجابه النور - أو النار لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره » . ثم قرأ أبو عبيدة : ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ . وأصل هذا الحديث مخرج فى الصحيح لمسلم <sup>(١)</sup> .

وقوله : ﴿ وَسَبَّحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : الذى يفعل ما يشاء ولا يشبه شيئاً من مخلوقاته ، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته ، وهو العلى العظيم ، المبين لجميع المخلوقات ، ولا يكتنفه الأرض والسموات ، بل هو الأحد الصمد ، المنزه عن مماثلة المحدثات . وقوله : ﴿ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ : أعلمه أن الذى يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز ، الذى عز كل شيء وقهره وغلبه ، الحكيم فى أفعاله وأقواله .

ثم أمره أن يلقى عصاه من يده ؛ ليظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار ، القادر على كل شيء . فلمالقى موسى تلك العصا من يده انقلبت فى الحال حية عظيمة هائلة فى غاية الكبر ، وسرعة الحركة مع ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌ ﴾ والجان : ضرب من الحيات ، أسرع حركة ، وأكثره اضطراباً - وفى الحديث : نهى عن قتل جنات البيوت <sup>(٢)</sup> . فلما عين موسى ذلك ﴿ وَكَلَىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعْقَبْ ﴾ أى : لم يلتفت من شدة فرقه ، ﴿ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدُنِيَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ أى : لا تخف مما ترى ، فإني أريد أن اصطفيك رسولاً ، وأجعلك نبياً وجيهاً .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حَسَنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ : هذا استثناء منقطع ، وفيه بشارة عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على عمل شيء ثم اقلع عنه ، ورجع وأتاب ، فإن الله يتوب عليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ [ طه : ٨٢ ] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ

فَفَسَّرَ لَمْ يَسْتَفْرِ اللَّهَ بِعَدِّ اللَّهِ غُفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ [النساء : ١١٠] والآيات في هذا كثيرة جداً . وقوله : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ لِي جِيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءً مِّنْ غَيْرِ سَوْءٍ ﴾ : هذه آية أخرى ، ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار ، وصدق من جعل له معجزة ، وذلك ان الله - تعالى - امره ان يدخل يده في جيب درعه ، فإذا ادخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة ، كأنها قطعة قمر ، لها لمان يتلالا كالبرق الحاطف . وقوله : ﴿ لِي تَسْعَ آيَاتٍ ﴾ أى : هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن ، واجعلهن برهانا لك إلى فرعون وقومه ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ . وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [الإسراء : ١٠١] كما تقدم تقرير ذلك هنالك .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُصْرَةً ﴾ أى : بينة واضحة ظاهرة ، ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وأرادوا معارضة بحرهم فغلبوا وانقلبوا صاغرين ﴿ وَجَعَلُوا بِهَا ﴾ أى : فى ظاهر أمرهم ﴿ وَأَسْقَيْنَهَا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أى : علموا فى أنفسهم أنها حق من عند الله ، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ ظَلَمًا وَعُلُوًّا ﴾ أى : ظلما من أنفسهم ، سجية ملعونة ﴿ وَعُلُوًّا ﴾ أى : استكباراً عن اتباع الحق ؛ ولهذا قال : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى : انظر يا محمد كيف كان عاقبة كفرهم ، فى إهلاك الله لياهم ، وإغراقهم عن آخرهم فى صبيحة واحدة . وفحوى الخطاب يقول : احذروا أيها المكذبون بمحمد ، الجاحدون لما جاء به من ربه ، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأخرى ؛ فإن محمداً ﷺ أشرف وأعظم من موسى ، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى ، بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده فى نفسه وشماله ، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به ، وأخذ الموثيق له ، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَأْتِيهَا النَّاسُ عِيْلَتًا مِّنطِقِ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١١٢﴾ وَخَيْرَ سُلَيْمَانَ جُودُهُ مِنَ الْإِنِّ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١١٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَأْتِيهَا النَّمْلُ أُدْخِلُوا فِيكُمْ مَسْكِنًا لَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانَ وَخُودُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١٤﴾ فَبَيَّنَّهٗ صَاحِبًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٥﴾

يخير تعالى عما أنعم به على عبديه ونبيه داود وابنه سليمان ، عليهما من الله السلام ، من النعم الجزيلة ، والمواهب الجليلة ، والصفات الجميلة ، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة ، والملك والتمكين التام فى الدنيا ، والنبوة والرسالة فى الدين ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . قال ابن أبى حاتم : كتب عمر بن عبد العزيز : إن الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها ، إلا كان حمده أفضل من نعمه ، لو كنت لا تعرف ذلك إلا فى كتاب الله المنزل ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وإى نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان ، عليهما السلام .

وقوله : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ أى : فى الملك والنبوة ، وليس المراد وراثته المال ؛ إذ لو كان كذلك

لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، فإنه قد كان لداود مائة امرأة . ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة ؛ فإن الأنبياء لا تورث أموالهم ، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله : « نحن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة » (١).

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مَن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، أى : أخبر سليمان بنعم الله عليه ، فيما وهبه له من الملك التام ، والتمكين العظيم ، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطيور . وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً ، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر - فيما علمناه - عما أخبر الله به ورسوله . ومن زعم من الجهلة والرعاع أن الحيوانات كانت تنطق كتنطق بنى آدم قبل سليمان بن داود - كما يتفوه به كثير من الناس - فهو قول بلا علم . ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة ؛ إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ، ويعرف ما تقول ، فليس الأمر كما زعموا ، ولا كما قالوا ، بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال . ولكن الله ، سبحانه وتعالى ، كان قد أفهم سليمان ، عليه السلام ، ما يتخاطب به الطيور في الهواء ، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها ؛ ولهذا قال : ﴿ عَلِمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مَن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى : مما يحتاج إليه الملك ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ أى : الظاهر البين لله علينا . روى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « كان داود ، عليه السلام ، في غيرة شديدة ، فكان إذا خرج أغلقت الأبواب ، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع » . قال : « فخرج ذات يوم وأغلقت الأبواب ، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار ، فإذا رجل قائم وسط الدار ، فقالت لمن في البيت : من أين دخل هذا الرجل ، والدار مغلقة ؟ والله لنتفضحن بداود ، فجاء داود ، عليه السلام ، فإذا الرجل قائم وسط الدار ، فقال له داود : من أنت ؟ قال : الذى لا يهاب الملوك ، ولا يمتنع من الحجاب . فقال داود : أنت والله إذا ملك الموت . مرجباً بأمر الله ، فتزمل داود ، عليه السلام ، مكانه حتى قبضت نفسه ، حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس ، فقال سليمان ، عليه السلام ، للطير : اظلى على داود ، فأظلت عليه الطير حتى اظلمت عليهما الأرض ، فقال لها سليمان : اقبضى جناحا جناحا » قال أبو هريرة : يارسول الله ، كيف فعلت الطير ؟ فقبض رسول الله ﷺ يده ، وغلبت عليه يومئذ المضحجة (٢) . قال أبو الفرج بن الجوزى : المضحجة : النور الحمراء .

وقوله تعالى : ﴿ وَخَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أى : وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطيور ، يعنى : ركب فيهم فى أبهة وعظمة كبيرة فى الإنس ، وكانوا هم الذين يلونه ، والجن وهم بعدهم فى المنزلة ، والطيور ومزلتها فوق رأسه ، فإن كان حر أظلمته منه بأجنحتها . وقوله : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أى : يكف أولهم على آخرهم ؛ لتلا يتقدم أحد عن منزله التى هى مرتبة له . قال مجاهد : جعل على كل صنف وزعة ، يردون أولها على آخرها ؛ لتلا يتقدموا فى السير ، كما يفعل الملوك اليوم . وقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا تَوَّأَ عَلَى وَادِ النَّمْلِ ﴾ أى : حتى إذا مر سليمان ، عليه السلام ، بمن معه من الجيوش والجنود على وادى النمل ، ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ ﴾

(١) البخارى ( ٦٧٢٧ ) .

(٢) المسند ( ٢ / ٤١٩ ) وقال الهيمى فى الزوائد ( ٨ / ٢٠٦ ) : « فيه المطلب بن عبد الله بن حنبل وثقه أبو زرعة وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

وَجُودَهُ وَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٠﴾ أى : خافت على النمل أن تحطمها الحويول بحوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم، ففهم ذلك سليمان، عليه السلام ، منها ﴿ فَبَسَمَ خَاجِحًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدِي ﴾ أى : اللهمنى أن اشكر نعمتك التي مننت بها علي، من تعليمي منطلق الطير والحويان ، وعلى والدي بالإسلام لك ، والإيمان بك ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ أى : عملاً تحبه وترضاه ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى : إذا توفيتى فألحقنى بالصالحين من عبادك، والرفيق الاعلى من أوليائك. ومن قال من المفسرين: إن هذا الوادى كان بأرض الشام أو بغيره ، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب، أو غير ذلك من الأقاويل ، فلا حاصل لها .

والغرض : أن سليمان ، عليه السلام ، فهم قولها، وتبسم ضاحكاً من ذلك ، وهذا امر عظيم جداً. وقد ثبت فى الصحيح - عند مسلم - عن أبى هريرة، عن النبي ﷺ قال : « قرصت نبياً من الأنبياء نملة ، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه ، أفى أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح ؟ فهلا نملة واحدة ! »

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَأَ أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢١﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

قال مجاهد ، وسعيد بن جبيرة، وغيرهما، عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندساً ، يدل سليمان عليه السلام على الماء ، إذا كان بأرض فلاة طلبة فنظر له الماء فى تخوم الأرض ، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض، فإذا دلهم عليه أمر سليمان ، عليه السلام ، الجان فحفروا له ذلك المكان ، حتى يستبط الماء من قراره ، فنزل سليمان ، عليه السلام يوماً ، بفلاة من الأرض، فتفقّد الطير ليرى الهدهد ، فلم يره ﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لَأَ أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ . حدث يوماً عبد الله بن عباس بنحو هذا، وفى القوم رجل من الخوارج، يقال له : نافع بن الأزرق ، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس ، فقال له : قف يا ابن عباس ، غلبت اليوم ! قال: ولم؟ قال: إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء فى تخوم الأرض، وإن الصبى ليضع له الحبة فى الفخ ، ويخنو على الفخ تراباً ، فيجىء الهدهد ليأخذها فيقع فى الفخ ، فيصيده الصبى . فقال ابن عباس : لولا أن يذهب هذا فيقول: رددت على ابن عباس ، لما أجبت . فقال له : ويحك ! إنه إذا نزل القدر عمى البصر، وذهب الحذر . فقال له نافع: والله لا أجادلك فى شيء من القرآن أبدا .

وقوله : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ : قال ابن عباس: يعنى نض ريشه . وقوله : ﴿ أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ﴾ يعنى : أقتله ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ بعذر واضح بين .

﴿ فَكَذَّبَ عَذَبَ بِبَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ حِطْ بِهِ. وَرَمَيْتُكَ مِنْ سِوَا بَيْتِكَ يَمِينٍ ﴿٢٣﴾ إني وَدِدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ وَمَا عَرْشُ عَظِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَوَدِدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْطَانِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَدَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَنْعَلَهُمْ صُدُّهُمْ عَنِ النَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾



يقول تعالى مخبراً عن قبل سليمان، عليه السلام، للهدهد حين أخبره عن أهل سبا وملكتهم : ﴿ قَالَ سَتَنْظُرُ أَصَدَقْتُ ﴾ أى صدقت فى إخبارك هذا ﴿ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فى مقاتلك ، فتخلص من الوعيد الذى أوعدتك ؟ ﴿ أَفَبِعِ كِتَابِي هَذَا فَآتَيْتُهُمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ وذلك أن سليمان ، عليه السلام ، كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها . وأعطاه لذلك الهدهد فحمله ، وجاء إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس ، إلى الخلوة التى كانت تختلئ فيها بنفسها ، فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها ، ثم تولى ناحية أديباً ورياسة ، فتعيرت مما رأت ، وهالها ذلك ، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ، ففتحت ختمه وقراته ، فإذا فيه : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَا تَتَّقُونَ عَلِيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها وملكها ، ثم قالت لهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّ إِلَهِي إِلَهِي كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ تمنى بكرمه : ما رآته من عجيب أمره ، كون طائر أتى به فألقاه إليها ، ثم تولى عنها أديباً . وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ، ولا سبيل لهم إلى ذلك ، ثم قرأته عليهم : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَا تَتَّقُونَ عَلِيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فعرفوا أنه من نبي الله سليمان، وأنه لا قبل لهم به . وهذا الكتاب فى غاية البلاغة والوجازة والفصاحة فإنه حصل المعنى بإيسر عبارة وأحسنها ، قال العلماء : ولم يكتب أحد ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قبل سليمان، عليه السلام . وقال ميمون بن مهران : كان رسول الله ﷺ يكتب : باسمك اللهم ، حتى نزلت هذه الآية ، فكتب : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ . وقوله : ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ عَلِيَّ ﴾ قال قتادة : يقول : لا تجيروا على ﴿ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ . قال ابن عباس : موحدلين . وقال سفيان بن عيينة : طائعين .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلَاؤُا قَوْمِكَ وَأَوْلَاؤُا بَأْسِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم فى أمرها ، وما قد نزل بها ، ولهذا قالت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ أى : حتى تحضرون وتشيرون ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلَاؤُا قَوْمِكَ وَأَوْلَاؤُا بَأْسِ شَدِيدٍ ﴾ أى : متوا عليها بعددهم وعظمتهم ، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا : ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ أى : نحن ليس لنا عاقبة ولا بنا بأس ، إن شئت أن نقصديه ونحاربه ، فما لنا عاقبة عنه . وبعد هذا فالامر إليك ، مرى فينا برايك نمثله ونطيعه . قال الحسن البصرى ، رحمه الله : فوضوا أمرهم إلى عا : تضطرب ثدياها ، فلما قالوا لها ما قالوا ، كانت هى أحزم رأياً منهم ، وأعلم بأمر سليمان ، وأنه لا قبل بها بجنوده وجيوشه ، وما سخر له من الجن والإنس والطير ، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديعاً ، فقالت لهم : إنى أخشى أن نحاربه وتمتع عليه ، فيقصدا بجنوده ، ويهلكنا بمن معه ، ويخلص إلى واليكم الهلاك والدمار دون غيرنا ، ولهذا قالت : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ قال ابن عباس : أى إذا دخلوا بلداً عنوة أفسدوه ، أى خربوه ﴿ وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذِلَّةً ﴾ أى : وقصدوا من فيها من الولاة والجنود ، فأهانوهم غاية الهوان ، إما بالقتل أو بالأسر . وقال ابن عباس : قالت بلقيس : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذِلَّةً ﴾ قال الرب ، عز وجل :

﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ . ثم عدلت إلى المهادنة والمصالحة والمسألة والمخادعة والمصانعة، فقالت : ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ قَاهِرَةٌ بِهِمْ يَرْجِعُ الْعَرْسِلُونَ﴾ أى : سأبعث إليه بهدية تليق به وانظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك ، فلعله يقبل ذلك ويكف عنا، أو يضرب علينا خراجا نحمله إليه فى كل عام ، ولنلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا. قال قتادة : رحمها الله ورضى عنها، ما كان أعقلها فى إسلامها وفى شركها !! علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس . وقال ابن عباس وغير واحد: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتَيْدُونَنِ بِمَالٍ يَمَالٍ فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَبَرٌ مِّمَّا آتَيْتَكُم بِلَ آتَتْهُم بِهَدِيَّتِكُمْ فَفَرِحُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجَبُودٍ لَا يَبْلُغُ لَهَا وَلَا يَنْجِيَهَا مِنْهَا آدَلَةٌ وَهُمْ صَاعِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ذكر غير واحد من المفسرين، من السلف وغيرهم : أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلى وغير ذلك . والظاهر أن سليمان، عليه السلام، لم ينظر إلى ما جاؤوا به بالكلية، ولا اعتنى به، بل اعرض عنه، وقال منكراً عليهم: ﴿ أَتَيْدُونَنِ بِمَالٍ يَمَالٍ ﴾ أى: أتصنعونى بمال لا تترككم على شرككم وملككم؟! ﴿ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَبَرٌ مِّمَّا آتَيْتَكُم ﴾ أى: الذى اعطانى الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ فَفَرِحُونَ ﴾ أى : أنتم الذين تتقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف . قال ابن عباس : أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة. فلما رأت رسلها ذلك قالوا: ما يصنع هذا بهديتنا. وفي هذا دلالة على جواز تهيب الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقصاد.

﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ أى: بهديتهم، ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجَبُودٍ لَا يَبْلُغُ لَهَا وَلَا يَنْجِيَهَا ﴾ أى : لا طاقة لهم بقتالهم ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا ﴾ أى: من بلادهم، ﴿ آدَلَةٌ وَهُمْ صَاعِرُونَ ﴾ أى: مهانون مدحورون .

فلما رجعت إليها رسلها بهديتها، وبما قال سليمان، سمعت وأطاعت هى وقومها، وأقبلت تسير إليه فى جنودها خاضعة ذليلة ، معظمة لسليمان ، نارية متابته فى الإسلام . ولما تحقق سليمان ، عليه السلام، قدومهم عليه ووفودهم إليه ، فرح بذلك وسره .

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيُّ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

قال قتادة: لما بلغ سليمان أنها جانية ، وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه ، ففكره أن يأخذ بهد إسلامهم . وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم مع دمانهم فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ . وهكذا قال عطاء الخراسانى . ﴿ قَالَ عِفْرِيُّ مِنَ الْجِنِّ ﴾ قال مجاهد: أى وارد من الجن ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ قال ابن عباس: يعنى: قبل أن تقوم من مجلسك . وقال

مجاهد: مقعدك ﴿وَأَنِّي عَلَيْهِ تَقْوِيٌّ أَمِينٌ﴾ قال ابن عباس: أى قوى على حمله، أمين على ما فيه من الجوهر. فقال سليمان، عليه السلام: أريد أعجل من ذلك. ومن ههنا يظهر أن النبي سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهبه الله له من الملك، وسخر له من الجنود، الذى لم يعطه أحد قبله، ولا يكون لاحد من بعده. وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتى بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه، فلما قال سليمان: أريد أعجل من ذلك ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ قال ابن عباس: وهو آصف كاتب سليمان.

وقوله: ﴿أَنَا تَيْبٌ يَهْتَدِي إِلَى طَرَفِكَ﴾ أى: ارفع بصرك وانظر مد بصرك بما تقدر عليه، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه فلما عين سليمان وملؤه ذلك، ورآه مستتراً عنده، ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ أى: هذا من نعم الله على ﴿يَتْلُونِي﴾ أى: ليخبرنى ﴿أَلشُّكْرُ أَمْ أَكْفَرُ وَمَنْ شَكَرْنَا مَّا يَشْكُرُونَ﴾ كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وكقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]. وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ أى: هو غنى عن العباد وعبادتهم ﴿كَرِيمٌ﴾ أى: كريم فى نفسه، وإن لم يعبد أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد، هذا كما قال موسى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٨]. وفى صحيح مسلم: «يقول الله تعالى: يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على اتقى قلب رجل منكم، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً. يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً. يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيتكم بإها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» (١).

﴿قَالَ تَكْرُؤًا لَمَا عَرَشَهَا نَنْظُرُ أَنْتَهْدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشِي قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَمُبِّدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿

لما جرى سليمان، عليه السلام، بعرش بلقيس قبل قدومها، أمر به أن يغير بعض صفاته، ليخبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس به، فقال: ﴿قَالَ تَكْرُؤًا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَنْتَهْدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ قال ابن عباس: نزع عنه فصوصه ومرافقه. وقال مجاهد: أمر به فغير ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشِي﴾ أى: عرض عليها عرشها، وقد غير ونكر، ورید فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لب ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها، ولا أنه غيره، لما رأت من آثاره وصفاته وإن غير وبدل ونكر، فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أى: يشبهه ويقاربه. وهذا غاية فى الذكاء والحزم. وقوله: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ قال مجاهد: سليمان يقول.

وقوله : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تُعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ : هذا من تمام كلام سليمان ، عليه السلام - في قول مجاهد ، وسعيد بن جبير - أى : قال سليمان : ﴿ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ ، وهى كانت قد صدها، أى : منعها من عبادة الله وحده ﴿ مَا كَانَتْ تُعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ . وهذا الذى قاله مجاهد وسعيد حسن ، وقاله ابن جرير أيضا . ثم قال ابن جرير : ويحتمل أن يكون في قوله : ﴿ وَصَدَّهَا ﴾ ضمير يعود إلى سليمان ، أو إلى الله ، عز وجل ، تقديره : ومنعها ﴿ مَا كَانَتْ تُعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : صدها عن عبادة غير الله ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ . قلت : ويؤيده قول مجاهد : أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح ، كما سيأتى .

وقوله : ﴿ قَبِلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ﴾ وذلك أن سليمان ، عليه السلام ، أمر الشياطين فبنوا لها قصراً عظيماً من قوارير ، أى : من زجاج ، وأجرى تحته الماء ، فالذى لا يعرف أمره يحسب أنه ماء ، ولكن يحول بين الماشى وبينه . فلما دخلت وكشفت عن ساقها ، رأى أحسن الناس ساقا وأحسنهم قدماً ، ولكن رأى على رجلها شعراً ؛ لأنها ملكة ليس لها بعل ، فأحب أن يذهب ذلك عنها فقيل لها : الموسى ؟ فقالت : لا أستطيع ذلك . وكره سليمان ذلك ، وقال للجن : اصنعوا شيئاً غير الموسى يذهب به هذا الشعر ، فصنعوا له النورة . وكان أول من اتخذت له النورة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة وابن جريج ، وغيرهم . ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ﴾ ، لانتشك أنه ماء نخوضه ، قيل لها : ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مَعْرُوفٌ مِنْ قَوَارِيرَ ﴾ أصل الصرح فى كلام العرب : هو القصر ، وكل بناء مرتفع ، قال الله ، سبحانه وتعالى ، إخباراً عن فرعون - لعنه الله - أنه قال لوزيره هامان : ﴿ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ . أَسْبَابُ السَّمَاوَاتِ فَاطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴿ الآية [ غافر : ٣٦ ، ٣٧ ] ، والصرح : قصر فى اليمن على البناء ، والمرد ، أى : المبنى بناء محكما أملس ﴿ مِنْ قَوَارِيرَ ﴾ أى : زجاج . وتمريد البناء تمليسه . ومارد : حصن بدومة الجندل . والغرض أن سليمان ، عليه السلام ، اتخذ قصراً عظيماً منيماً من زجاج لهذه الملكة ؛ ليربها عظيمة سلطانه وتمكنه ، فلما رأت ما أتاه الله ، تعالى ، وجلالة ما هو فيه ، وتبصرت فى أمره انتقادت لأمر الله وعرفت أنه نبي كريم ، وملك عظيم ، فأسلمت لله ، عز وجل ، وقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أى : بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس من دون الله ، ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : متابعة لدين سليمان فى عبادته لله وحده ، لا شريك له ، الذى خلق كل شئ فقدره تقديراً .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٦﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَفْقِرُونَ لِلَّهِ لَمَّا كُنْتُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَيَمْنُ مَعَكَ قَالٍ طَبَّرَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُتَعَتُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح ، عليه السلام ، حين بعثه الله إليهم ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ قال مجاهد : مؤمن وكافر ، كقوله تعالى : ﴿ قَالَ الضُّلَّاءُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنْ صَالِحًا مَرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [ الأعراف : ٧٥ ، ٧٦ ] . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أى : لم تدعون بحضور العذاب ، ولا تطلبون من الله رحمة ؟ ولهذا قال : ﴿ لَوْلَا

تَسْتَفْزِرُونَ اللَّهَ لَكُمْ لِرَحْمَانٍ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِعَن مِّنْكَ ﴿٤٨﴾ أى : ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً .  
 وذلك أنهم - لشقايتهم - كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال : هذا من قبل صالح وأصحابه . قال  
 مجاهد : تشاءموا بهم . وهذا كما قال تعالى إخباراً عن قوم فرعون : ﴿ إِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ  
 تُصِيبِهِمُ سَيِّئَةٌ يَطْفِرُوا يَحْسَبِينَ وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا إِنَّمَا يَطَّيَّرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف : ١٣١] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ  
 يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [النساء : ٧٨] أى : بقضاء الله  
 وقدره . وقال مخبراً عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون : ﴿ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَرَجِمَنَّكُمْ وَنَحَّسَنَّكُمْ  
 مَا عَذَابَ أَهْمٍ . قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ [يس : ١٨ ، ١٩] . وقال هولاء : ﴿ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِعَن مِّنْكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ  
 اللَّهِ ﴾ أى : الله يجازيكم على ذلك ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ قال قتادة : تبتلون بالطاعة والمعصية . والظاهر  
 أن المراد بقوله : ﴿ تُفْتَنُونَ ﴾ أى : تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال .

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ  
 لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرًا  
 مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ  
 ﴿ فَتِلْكَ يَوْمَئِذٍ خَاوِبَةٌ يَتَشَاكَمُونَ فِي ذَلِكَ لِآيَةِ الْقَوْمِ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ  
 ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ ﴿

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورووسهم، الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب  
 صالح، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة، وهموا بقتل صالح أيضاً، بأن يبيتوه في أهله ليلاً فيقتلوه  
 غيلة، ثم يقولوا لأوليائه من آقريبه: إنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به، من  
 أنهم لم يشاهدوا ذلك، فقال تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ أى : مدينة ثمود ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أى : تسعة نفر  
 ﴿ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ وإنما غلب هولاء على أمر ثمود، لأنهم كانوا كباراً فيهم وروساءهم .  
 قال ابن عباس: هولاء هم الذين عقروا الناقة، أى : الذين صدر ذلك عن آرائهم ومشورتهم - فحبهم الله  
 ولعنهم - وقد فعل ذلك . قال الله تعالى : ﴿ فَادْعُوا صَاحِبَهُمْ فَتَطِئْهُمُ لِقَرَّةٍ ﴾ [القمر : ٢٩] ، وقال تعالى :  
 ﴿ إِذْ أَنْبَأْتُ شِقَاقَهَا ﴾ [الشمس : ١٢] . وقال عطاء بن أبي رباح : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي  
 الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ قال : كانوا يقرضون الدراهم ، يعنى : أنهم كانوا يأخذون منها، وكانهم كانوا  
 يتعاملون بها عدداً، كما كان العرب يتعاملون . وقال سعيد بن المسيب : قطع الذهب والورق من الفساد  
 في الأرض . والغرض : أن هولاء الكفرة الفسقة، كان من صفاتهم الإنفاد في الأرض بكل طريق  
 يقدرن عليها، فمنها ما ذكره هولاء الأئمة وغير ذلك .

وقوله : ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أى : تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح، عليه السلام،  
 من لقيه ليلاً غيلة . فكادهم الله ، وجعل الدائرة عليهم . قال مجاهد : تقاسموا وتحالفوا على هلاكه ،  
 فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين . وقال ابن عباس: هم الذين عقروا الناقة، قالوا حين  
 عقروها: لنبيتن صالحاً وأهله فنقتلهم، ثم نقول لأوليائه صالح: ما شهدنا من هذا شيئاً، وما لنا به  
 علم . فلعنهم الله أجمعين . وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: لما عقروا الناقة وقال لهم صالح : ﴿ تَمَتُّوا فِي  
 دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ﴾ [هود : ٦٥]، قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام، فنحن

نفرغ منه وأهله قبل ثلاث. وكان لصالح مسجد في الحجر عند شعب هناك يصلي فيه، فخرجوا إلى كهف، أي: غار هناك ليلاً، فقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه، ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله، ففرغنا منهم. فبعث الله صخرة من الهضب جبالهم، فخشوا أن تشدهم فتبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار، فلا يدري قومهم أين هم. ولا يدرون ما فعل بقومهم. فعذب الله هؤلاء ههنا، وهؤلاء ههنا، وانجى الله صالحاً ومن معه، ثم قرأ: ﴿ وَكَرَّوْا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِمِينَ إِنَّا دَفَعْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتَكَرَّهْتُمْ خَاوِبَةٌ ﴿ أَى: فارغة ليس فيها أحد ﴾ ﴿ بِمَا ظَلَمُوا إِيَّاهُ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَالْحَيَاتِ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿ أَيْنَكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُولٍ ﴾ ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوآءَ آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْظَهَرُونَ ﴿ فَأَجْنَبْنَاهُ وَآهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَّرْنَا مِنْهَا مِنَ الْقَبْرِ ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴾

بخير تعالى عن عبده ورسوله لوط، عليه السلام، أنه أنذر قومه نعمة الله بهم، في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من نبي آدم، وهي إتيان الذكور دون الإناث، وذلك فاحشة عظيمة ، استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء ، فقال: ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ ﴾ أي : يرى بعضكم بعضاً، وتأتون في ناديتكم المنكر؟ ﴿ أَيْنَكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُولٍ ﴾ أي : لا تعرفون شيئاً لا طبعاً ولا شرعاً، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ . وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ ( الشعراء : ١٦٥ ، ١٦٦ ) . ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْظَهَرُونَ ﴾ أي : يتخرجون من فعل ما تفعلون، ومن إقراركم على صنيتكم، فأخرجوهم من بين أظهركم فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم فعزموا على ذلك، فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، قال الله تعالى: ﴿ فَأَجْنَبْنَاهُ وَآهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَّرْنَا مِنْهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أي : من الهالكين مع قومها؛ لأنها كانت ردة لهم على دينهم، وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيغان لوط ، ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكزمت لنبي الله ﷺ لا كرامة لها .

وقوله : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ أي : حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين يبيد ؛ ولهذا قال : ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴾ أي : الذين قامت عليهم الحجة، ووصل إليهم الإنذار ، فخالفوا الرسول وكذبوه، وهموا بإخراجه من بينهم .

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَبِيرٌ أَمَا يُشْرِكُونَ ﴿ أَمَنْ خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُمْ قَوْمٌ بِعَدُولٍ ﴾

يقول تعالى أمراً رسول الله ﷺ أن يقول: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي : على نعمه على عباده، من النعم التي لا تعد ولا تحصى ، وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى، وإن يسلم على عباد الله الذين

اصطفاهم واختارهم ، وهم رسله وأنبيائه الكرام ، عليهم من الله الصلاة والسلام ، هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيره : إن المراد بعباده الذين اصطفى : هم الأنبياء ، قال : وهو كقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [ الصفات : ١٨٠ - ١٨٢ ] . وقال الثوري، والسدي: هم أصحاب محمد ﷺ ورضى عنهم أجمعين ، وروى نحوه عن ابن عباس . ولا منافاة، فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى، فالأنبياء بطريق الأولى والأخرى، والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ما ذكر لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد، وما أحل بأعدائه من الحزى والنكال والقهر، أن يحمده على جميع أفعاله، وأن يسلموا على عباده المصطفين الاخيار. وقوله: ﴿ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ ﴾ : استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله كلمة أخرى .

ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره ، فقال : ﴿ أَمْ نَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أى : تلك السموات بارتفاعها وصفاتها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والافلاك الدائرة، والأرض باستفالتها وكثافتها، وما جعل فيها من الجبال والاوهار والسهول، والقباني والقفار، والأشجار والزرع، والثمار والبحور ، والحيوان على اختلاف الاصناف والاشكال والالوان وغير ذلك .

وقوله: ﴿ وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أى: جعله رزقاً للعباد ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا ﴾ أى: بساتين ﴿ ذَاتِ بَهْجَةٍ ﴾ أى: بمنظر حسن وشكل بهي ﴿ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُشْبِعُوا شَجَرَهَا ﴾ أى: لم تكونوا تقدرون على إنبات شجرها ، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرزاق، المستقل بذلك المنفرد به دون ما سواه من الاصنام والأنداد، كما يعترف به هؤلاء المشركون، كما قال تعالى في الآية الاخرى: ﴿ وَتَمَنَّى سَائِغُتُمْ مِنْ خَلْقِهِمْ لِيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ [ الزخرف : ٨٧ ] ، ﴿ وَتَمَنَّى سَائِغُتُمْ مِنْ نَزَلٍ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْبَبَ بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ [ التنبؤات : ٦٣ ] أى : هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له ، ثم هم يعبدون معه غيره بما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة من هو المنفرد بالخلق والرزق، ولهذا قال : ﴿ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى : إله مع الله يعبد . وقد تبين لكم ولكل ذى لب مما يعرفون به أيضاً أنه الخالق الرزاق . ومن المفسرين من يقول: معنى قوله: ﴿ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى : إله مع الله فعل هذا . وهو يرجع إلى معنى الاول؛ لأن تقدير الجواب أنهم يقولون: ليس ثم أحد فعل هذا معه ، بل هو المنفرد به . فيقال : فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المنفرد بالخلق والتدبير ؟ كما قال : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ لَأَقُولَنَّ بِحَقِّكُمْ ﴾ [ النحل : ١٧ ] . وقوله هنا : ﴿ أَمْ نَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ : ﴿ أَمْ نَخْلُقُكُمْ لَأَقُولَنَّ بِحَقِّكُمْ ﴾ : فى هذه الآيات كلها تقديره : أمن يفعل هذه الاشياء كمن لا يقدر على شيء منها ؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر .

ثم قال : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ أى : يجعلون لله عدلاً ونظيراً . وهكذا قال تعالى : ﴿ أَمْ نَحْنُ هُوَ فَانْتَ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَالِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيُجِزُّ رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [ الزمر : ٩ ] أى: أمن هو هكذا كمن ليس كذلك ؟ ولهذا قال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ الزمر : ٩ ] ، ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [ الزمر : ٢٢ ] ، وقال : ﴿ أَلَمْ نَكُنْ مِنْ قَبْلِهِمْ نَفْسًا كَاتِبَةً ﴾ [ الرعد : ٣٣ ] أى: أمن هو شهيد على أفعال الخلق، حركاتهم

وسكناتهم، يعلم الغيب جليله وحقيقه ، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الاصنام التي عبدوها ؟ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [ الرعد : ٢٣ ] ، وهكذا هذه الآيات الكريمة كلها .

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلْ خَلْقَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلْ لَهَا رِوَاسِيًا وَجَعَلْ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَيْلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أى : قارة ساكنة ثابتة ، لا عميد ولا تتحرك لاهلها ولا ترجف بهم ، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة ، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بساطاً ثابتة لا تنزل ولا تتحرك ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ [ غافر : ٦٤ ] . ﴿ وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ﴾ أى : جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة تشقها فى خلالها، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، بحسب مصالح عباده فى أقاليمهم وأقطارهم حيث زراهم فى أرجاء الأرض ، سير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ، ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رِوَاسِيًا ﴾ أى : جبالاً شامخة ترسى الأرض وتثبتها ؛ لتلا عميد بكم ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ أى : جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً، أى : مانعاً يمنعها من الاختلاط، لتلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضى بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس . والمقصود منها: أن تكون عذبة زلالاً تسقى الحيوان والنبات والثمار منها. والبحار المالحة هى المحيطة بالأرجاء والاقطار من كل جانب ، والمقصود منها: أن يكون ماؤها ملحاً أجاحاً؛ لتلا يفسد الهواء بريحتها ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ [ الفرقان : ٥٣ ] ؛ ولهذا قال : ﴿ أَيْلَهُ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى : فعل هذا ؟ أو يعبد على القول الأول والأخرى؟ وكلاهما متلازم صحيح ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : فى عبادتهم غيره .

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَيْلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال : ﴿ وَإِذَا سَأَلَ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ ﴾ [ الإسراء : ٦٧ ] ، وهكذا قال ههنا : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ أى : من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذى لا يكشف ضر المضررين سواه .

روى الإمام أحمد عن رجل من بلهجين (١) قال : قلت : يارسول الله ، إلام تدعو ؟ قال : « أدعو إلى الله وحده ، الذى إن مسك ضر فدعوته كشف عنك ، والذى إن أضللت بأرض قفر فدعوته رد عليك ، والذى إن أصابك سنة فدعوته أثبت لك » . قال : قلت : أوصنى . قال : « لا تسبن أحداً ، ولا تزهدن فى المعروف ، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناه المستقى ، واتزر إلى نصف الساق، فإن آبيت فإلى الكعبين . وإياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المخيلة، وإن الله - تبارك وتعالى - لا يحب المخيلة » (٢) .

(١) وهو : جابر بن سليم الهجيمي ، كما صرح به فى المسند ( ٥ / ٦٣ ) .

(٢) المسند ( ٥ / ٦٤ ) وأبو داود ( ٤٠٨٤ ) وصححه الألبانى .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلْكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ أى : قرنا لقرن قبلهم وخلفاً لسلف ، كما قال تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ . لِمَنْ هُوَ ذُو الْعَرْشِ عَالِمٌ ﴾ [ الانعام : ١٣٣ ] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [ الانعام : ١٦٥ ] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [ البقرة : ٣٠ ] ، أى : قوماً يخلف بعضهم بعضاً . وهكذا هذه الآية : ﴿ وَيَجْعَلْكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ أى : أمة بعد أمة ، وجيلاً بعد جيل ، وقوماً بعد قوم . ولو شاء لأوجد لهم كلهم فى وقت واحد ، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض ، بل لو شاء لخلقهم كخلقهم أجمعين ، كما خلق آدم من تراب . ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ولكن لا يميت أحداً حتى تكون وفاة الجميع فى وقت واحد ، فكانت تصيب عليهم الأرض ، وتصيب عليهم معاشهم وأكسابهم ، ويتضرر بعضهم ببعض . ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ، ثم يكثرهم غاية الكثرة ، ويذريهم فى الأرض ، ويجعلهم قروناً بعد قرون ، وأما بعد أمم ، حتى ينقضى الاجل وتفرغ البرية ، كما قدر ذلك تبارك وتعالى ، وكما أحصاهم وعدهم عدداً ، ثم يقيم القيامة ، ويوفى كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَمْ نَجِيبُ الْمُضْطَرُّ إِذَا دَعَاهُ وَيكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى : يقدر على ذلك ، أو إله مع الله يعبد ، وقد علم أن الله هو المتضرد بفعل ذلك ﴿ قَبِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى : ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

﴿ أَمْ نَجِيبُ الْمُضْطَرُّ إِذَا دَعَاهُ وَيكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ ﴾ قَبِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴿

يقول : ﴿ أَمْ نَجِيبُ الْمُضْطَرُّ إِذَا دَعَاهُ وَيكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى : بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية ، كما قال : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [ النحل : ١٦ ] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ الآية [ الانعام : ٩٧ ] . ﴿ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى : بين يدي السحاب الذى فيه مطر ، يغيث به عباده المجدين الارلين القنطين ﴿ إله مع الله تعالى الله عما يشركون ﴾ .

﴿ أَمْ نَجِيبُ الْمُضْطَرُّ إِذَا دَعَاهُ وَيكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ ﴾ قَبِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴿

أى : هو الذى بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ . لِمَنْ هُوَ ذُو الْعَرْشِ عَالِمٌ ﴾ [ البقرة : ٢٥ ] ، وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [ الروم : ٢٧ ] . ﴿ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى : بما ينزل من مطر السماء ، وينبت من بركات الأرض ، كما قال : ﴿ وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ وَالْأَرْضَ ذَاتَ الصَّدْعِ ﴾ [ الطارق : ١١ ، ١٢ ] ، وقال : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَلَّغَ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَخْرُجُ فِيهَا ﴾ [ الحديد : ٤ ] ، فهو تبارك وتعالى ، ينزل من السماء ماء مباركا فيسكنه فى الأرض ، ثم يخرج به منها أنواع الزروع والثمار والأزهار ، وغير ذلك من ألوان شتى ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [ طه : ٥٤ ] ، ولهذا قال : ﴿ إله مع الله ﴾ أى : فعل هذا . وعلى القول الآخر : يعبد ؟ ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على صحة ما تدعونه من عبادة إلهة أخرى ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى ذلك ، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان ، كما قال الله : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ

لا يبرهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴿ [المؤمنون : ١١٧] .

﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ ﴿١﴾ بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي  
الْآخِرَةِ بَلٌ هُمْ فِي شَكِّ مَنَّا بَلْ هُمْ مَنهَا عَمُونَ ﴿٢﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق: أنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب. وقوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ استثناء منقطع، أي: لا يعلم أحد ذلك إلا الله، عز وجل، فإنه المفرد بذلك وحده، لا شريك له، كما قال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية [الانعام: ٥٩]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٤]، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: وما يشعر الخلائق الساكنون في السموات والأرض بوقت الساعة، كما قال: ﴿تَلَقَّتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَاتَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الاعراف: ١٨٧]، أي: ثقل علمها على أهل السموات والأرض. وروى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت: من زعم أنه يعلم - يعني النبي ﷺ - ما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (١). وقال قتادة: إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصلات: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال براهيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به. وإن ناماً جهلة بأمر الله، قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا، كان كذا كذا. ومن سافر بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا. ومن ولد بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا. ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود، والقصير والطويل، والحسن والدميم، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب أو قضى الله: أنه لا يعلم من السموات والأرض الغيب إلا الله، وما يشعرون أيان يبعثون. رواه ابن أبي حاتم عنه بحروفه، وهو كلام جليل متين صحيح.

وقوله: ﴿بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلٌ هُمْ فِي شَكِّ مَنَّا﴾ أي: انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها. وقرأ آخرون: ﴿بَلِ أَدْرَكَ (٢) عَلَيْهِمْ﴾ أي: تساوى علمهم في ذلك، كما في الصحيح لمسلم: أن رسول الله ﷺ قال لجبريل - وقد سأله عن وقت الساعة: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، (٣) أي: تساوى في العجز عن درك ذلك علم المسؤول والسائل. قال ابن عباس: ﴿بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: غاب. وقال قتادة: ﴿بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ يعني: بجهلهم بربهم، يقول: لم ينفذ لهم إلى الآخرة علم، هذا قول. وقال ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: ﴿بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ حين لم ينفذ العلم، وبه قال عطاء الخراساني، والسدي: أن علمهم إنما يدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا يتفهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوكَ فَتَوَلَّى كَيْفَ يَظَالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿بَلِ هُمْ فِي شَكِّ مَنَّا﴾ عائد على الجنس، والمراد الكافرون، كما قال تعالى:

(١) البخاري (٤٨٥٥) ومسلم (٢٨٧/ ١٧٧) بنحوه.

(٢) مسلم (٩/ ٥).

(٣) قراءة أبي جعفر وابن كثير وأبي عمرو بن حميد.

﴿ وَغَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صُلًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا جِئْتُمُوهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ [الكهف : ٤٨] أى : الكافرون منكم. وهكنا قال ههنا : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾ أى : شاكون فى وجودها ووقوعها، ﴿ بَلْ هُمْ مِنْهَا عُمُونَ ﴾ أى : فى عمابة وجهل كبير فى امرها وشانها .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا أَيْدَانًا لَشَجَرِجَاتٍ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَلَالٍ مِمَّا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن منكرى البعث من المشركين : أنهم استبدلوا إعادة الاجاد بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وتراباً، ثم قال : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : ما رلنا نسمع بهلنا نحن وآبأونا، ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً. وقولهم : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ : يعنون : ما هذا الوعد بإعادة الابدان ﴿ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى : أخذه قوم عنم قبلهم ، من كتبهم يتلقاه بعض عن بعض، وليس له حقيقة. قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم الماد : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء : ﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى : المكذبين بالرسل وما جازوهم به من أمر الماد وغيره، كيف حلت بهم نعم الله وعذابه ونكاله ولحى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين ، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته .

ثم قال تعالى مسلماً لنيه ﷺ : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : المكذبين بما جئت به ، ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات ﴿ وَلَا تَكُنْ فِي ضَلَالٍ مِمَّا يَتَكَبَّرُونَ ﴾ أى : فى كيدك ورد ما جئت به، فإن الله مؤيدك وتناصرك، ومظهر دينك على من خالفه وهانده فى المشارق والمغارب .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ عَلِيمٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين، فى سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قال الله مجيباً لهم : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ قال ابن عباس : أن يكون قرب - أو : أن يقرب - لكم بعض الذى تستعجلون . وهكنا قال مجاهد ، وقتادة ، والسلى . وههنا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء : ٥١] ، وقال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [المنكوت : ٥٤] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أى : فى إسباغته نعمه عليهم مع ظلمهم لانفسهم، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أى : يعلم السرائر والضمائر ، كما يعلم الظواهر ، ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ [الفرعد : ١٠] ، ﴿ يَتْلُمُ السِّرَ وَالْأَخْفَى ﴾ [ طه : ٧ ] ، ﴿ أَلَا جِنَّةٌ يَسْتَعْتُونَ فِيهَا هُمْ يَتْلُمُ مَا يَسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [ هود : ٥ ] . ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والارض، وأنه عالم الغيب والشهادة - وهو ما غاب عن العباد وما

شاهدوه - فقال : ﴿ وَمَا مِنْ غَابِئَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس : يعنى : وما من شيء ﴿ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠] .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْفُذُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَكُوفُوا مُدْبِرِينَ ﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِنَّ إِنَّ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وما اشتمل عليه من الهدى والبيانات والفرقان: أنه يقصص على بني إسرائيل - وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ، كاختلافهم في عيسى وتبنيهم فيه، فاليهود افتروا، والنصارى غلوا، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسوله الكرام، عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [ مريم : ٢٤ ] .

قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: هدى لقلوب المؤمنين، ورحمة لهم . ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ في انتقامه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم . ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي: في أمورك ، وبلغ رسالة ربك ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ أي : أنت على الحق المبين وإن خالفك ، عن كتبت عليه الشقاوة وحق عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ﴾ أي لا تسمعهم شيئاً ينفعهم ، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة ، وفي آذانهم وقر الكفر ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَكُوفُوا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِنَّ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أي : إنما يستجيب لك من هو سميع بصير ، السمع والبصر النافع في القلب والبصيرة ، الخاضع لله ، ولما جاء عنه على السنة الرسل ، عليهم السلام .

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتكلمهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق ، يخرج الله لهم دابة من الأرض - قيل : من مكة . وقيل : من غيرها - فتكلم الناس على ذلك . قال ابن عباس ، والحسن ، وقادة - وروى عن علي : تكلمهم كلاما ، أي : تخاطبهم مخاطبة . وقال عطاء الحمراساني : تكلمهم فضول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون . وروى هذا عن علي ، واختاره ابن جرير . وفي هذا القول نظر لا يخفى ، والله اعلم . وقال ابن عباس - في رواية - : مخرجهم . وعنه رواية ، قال : كلاً تفعل ، يعني هذا وهذا ، وهو قول حسن ، ولا منافاة ، والله اعلم .

وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة ، منها : روى الإمام أحمد عن حنيفة بن أسيد الغفاري قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتفاكر أمر الساعة فقال : لا تقوم الساعة

حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمغرب ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق - أو : تحشر - الناس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقبل معهم حيث قالوا . وهكذا رواه مسلم وأهل السنن ، وقال الترمذى : حسن صحيح . ورواه مسلم موقوفاً والله أعلم (١) . وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيتهما ما كانت قبل صاحبتهما ، فالأخرى على إثرها قريباً » (٢) . وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال ستا : طلوع الشمس من مغربها ، أو الدخان ، أو الدجال ، أو الدابة ، أو خاصة أحدكم ، أو أمر العامة » . وفى رواية : « بادروا بالأعمال ستا : الدجال ، والدخان ، ودابة الأرض ، وطلوع الشمس من مغربها ، وأمر العامة ، وخويصة أحدكم » (٣) .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمْنَا أَنَّا نَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِنَمُكِّنَهُمْ فِيهِ وَأَلْتَهَارُ مُبْصِرًا إِلَيْكَ فِي ذَلِكَ لآيَاتِ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة ، وحشر الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله ، عز وجل ، ليسألهم عما فعلوه فى الدار الدنيا ، تقريباً وتوبيخاً ، وتصغيراً وتحقيراً فقال : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ أى : من كل قوم وقرن فوجاً ، أى : جماعة ﴿ مِنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [ الصافات : ٢٢ ] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [ التكاوير : ٧ ] . وقوله : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ قال ابن عباس : يدفعون . وقال قتادة : وَرَعَةٌ ترد أولهم على آخرهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يساقون .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ ﴾ أى : أوقفوا بين يدي الله ، عز وجل ، فى مقام المساءلة ﴿ قَالَ أَكذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمْنَا أَنَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : ويسألون عن اعتقادهم ، وأعمالهم ، فلما لم يكونوا من أهل السعادة ، وكانوا كما قال الله تعالى عنهم : ﴿ فَلَا صَدْقَ وَلَا صُلَىٰ . وَلَكِنْ كَذِبٌ وَتَوَلَّى ﴾ [ القيامة : ٣١ ، ٣٢ ] ، فحيتض قامت عليهم الحجة ، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به ، كما قال تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ . وَيَلَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [ المراتل : ٣٥ - ٣٧ ] ، وهكذا قال ههنا : ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا لَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ أى : بهتوا فلم يكن لهم جواب ؛ لأنهم كانوا فى الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذى لا تخفى عليه خافية .

ثم قال تعالى منبهاً على قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ، وشانه الرفيع الذى تجب طاعته

(١) المسند (٤ / ٦ ، ٧) ، ومسلم (١ / ٢٩٠ - ٢٩١) ، والترمذى (٢١٨٣) .

(٢) مسلم (١١٨ / ٢٩٤١) . (٣) مسلم (٢٩٤٧ / ١٢٨) .

والانقياد لوامره ، وتصديق أنبيائه فيما جازوا به من الحق الذي لا محيد عنه ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْكُونًا فِيهِ ﴾ أى : فيه ظلام تسكن بيه حركاتهم ، وتهدا انفسهم ، ويستريحون من نصب التعب فى نهارهم ﴿ وَالنَّهَارَ مَبْصُرًا ﴾ أى : منيراً مشرقاً ، فبسبب ذلك يتصرفون فى المعاش والمكاسب ، والاسفار والتجارات ، وغير ذلك من شؤونهم التى يحتاجون إليها ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهُ دَاخِرِينَ ﴾  
وَرَوَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَإِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿١٠﴾  
مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِمَّنْ يَفْرَعُ يَوْمَئِذٍ مِّمَّنْ يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع فى الصور، وهو كما جاء فى الحديث : « قرن ينفخ فيه » (١) . وفى حديث ( الصور ) أن إسرائيل هو الذى ينفخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولا نفخة الفزع ويطولها ، وذلك فى آخر عمر الدنيا ، حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء ، فيفزع من فى السموات ومن فى الأرض ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ ، وهم الشهداء ، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون . روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو ، وجاءه رجل فقال : ما هذا الحديث الذى تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان الله - أو : لا إله إلا الله - أو كلمة نحوهما - لقد هممت ألا أحدث أحداً شيئاً أبداً ، إنما قلت : إنكم مترون بعد قليل أمراً عظيماً يخرّب البيت ، ويكون ويكون . ثم قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال فى امتى فيمكث أربعين - لا أدرى أربعين يوماً ، أو أربعين شهراً ، أو أربعين عاماً - فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود ، فيطلبه فيهلكه . ثم يمكث الناس سبع سنين ، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مقال فزة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدهم دخل فى كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه » . قال : سمعتها من رسول الله ﷺ ، قال : « فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستحيون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم فى ذلك دار رزقهم ، حسن عيشهم . ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصفى ليتها ورفع ليتها » . قال : « وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله » . قال : « فيصعقُ ويصعقُ الناس ، ثم يرسل الله - أو قال : ينزل الله مطراً كأنه الطل - أو قال : الظل - نعمان الشاك - فتبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخُ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . ثم يقال : يا أيها الناس ، هلموا إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسؤولون . ثم يقال : أخرجوا بعث النار . فيقال : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين » . قال : « فذلك يوم يجعل الولدان شيباً ، وذلك يوم يكشف عن ساق » (٢) .

وقوله : « ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصفى ليتها ورفع ليتها » ، اللية : هو صفحة

(١) المست ( ٦٥٠٧ ) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) مسلم ( ٢٩٤٠ / ١١٦ ) .

العتق ، اى : آمال عتقه ليستمعه من السماء جيداً . فهذه نفخة الفزع . ثم بعد ذلك نفخة الصعق ، وهو الموت . ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين ، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكُلُّ أُنُورَةٍ ذَاخِرِينَ ﴾ اى : صاغرين مطيعين ، لا يتخلف أحد عن امره ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمِيهِ ﴾ [ الإسراء : ٥٢ ] ، وقال : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [ الروم : ٢٥ ] .

وفى حديث الصور : أنه فى النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح ، فتوضع فى ثقب فى الصور ، ثم يتفخ إسرافيل فيه بعد ما تنبت الاجساد فى قبورها واماكنها ، فإذا نفخ فى الصور طارت الأرواح ، تتوهج أرواح المؤمنين نوراً ، وأرواح الكافرين ظلمة ، فيقول الله ، عز وجل : وعزتى وجلالى لترجعن كل روح إلى جسدها . فتجىء الأرواح إلى اجسادها ، فتدب فيها كما يدب السم فى اللديخ ، ثم يقومون فيفيضون التراب من قبورهم ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِطُونَ ﴾ [ المارج : ٤٣ ]

وقوله : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَانِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ اى : تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه ، وهى تمر مر السحاب ، اى : تزول عن اماكنها ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا . وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ﴾ [ الطور : ٩ ، ١٠ ] ، وقال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَا تَرَى فِيهَا عِزَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [ طه : ١٠٥ - ١٠٧ ] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَسِىَ الْجِبَالُ تَتْرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [ الكهف : ٤٧ ] .  
وقوله : ﴿ صَنَعَ اللَّهُ الَّذِي اتَّفَقَ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ اى : يفعل ذلك بقدرته العظيمة الذى قد اتفق كل ما خلق ، وأودع فيه من الحكمة ما أودع ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ اى : هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر فيجازيهم عليه .

ثم بين تعالى حال السعداء والاشقياء يومئذ فقال : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ قال قتادة : بالإخلاص . وقال زين العابدين : هى لا إله إلا الله ، وقد بين فى المكان الآخر أن له عشر أمثالها ﴿ وَهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ يُوقِنُونَ ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفِرْعَوْنُ الْأَكْبَرُ ﴾ [ التيسية : ١٠٣ ] ، وقال : ﴿ لَخَسَنَ يَأْتِي فِي النَّارِ خَيْرٌ لَّمْ يَأْتِي آخِرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [ فصلت : ٤٠ ] ، وقال : ﴿ وَهُمْ فِي الْفِرْعَانَاتِ آمِنُونَ ﴾ [ سبأ : ٣٧ ] .  
وقوله : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَيْتٌ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ اى : من لقى الله سيئاً لا حسنة له ، أو : قد رجحت سيئاته على حسناته ، كل بحسبه ؛ ولهذا قال : ﴿ هَلْ تَعْبُرُونَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . وقال ابن مسعود وأبو هريرة وابن عباس ، وأتس بن مالك ، وعطاء ، وسعيد ابن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد فى قوله : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ معنى : بالشرك .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّكَ هَذِهِ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ﴿ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَلِنَمَّا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ . وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ ﴿ وَقُلْ لِحَمْدِ اللَّهِ سَبْرِيكُمُ الْيُسْرَىٰ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِمَنْقُولٍ ﴾ ﴿

يقول تعالى مخبراً رسوله وأمرأ له ان يقول : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ ﴾ ، كما قال : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ بَيْنِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَلَّوكُمْ ﴾ [ يونس : ١٠٤ ] . وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها ، كما قال :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمْتَهُمْ مِنْ غُرْفٍ ﴾ [ قريش : ٣ ، ٤ ] . وقوله : ﴿ الَّذِي حَرَمَهَا ﴾ : أى : الذى إنما صارت حراماً قدرأ وشرعاً ، بتحريمه لها ، كما ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكة ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته إلا لمن عرفها ، ولا يتخلى خلاهاه الحديث بتمامه . وقد ثبت فى الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع (١) .

وقوله : ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ : من باب عطف العام على الخاص ، أى : هو رب هذه البلدة ، ورب كل شىء ومليكه ﴿ وَأَمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ : أى : الموحدين المخلصين المتقادين لأمره المطيعين له . وقوله : ﴿ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ ﴾ : أى : على الناس أبلغهم إياه ، كقوله : ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ [ آل عمران : ٥٨ ] ، وكقوله : ﴿ نَظَرْنَا عَلَيْكَ مِنْ نُبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالنَّحْيِ لِقَوْمِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [ القصص : ٣ ] : أى : أنا مبلغ ومنذر ، ﴿ فَمَنْ اعْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ : أى : لى أسوة بالرسول الذين أنذروا قومهم ، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم ، وخلصوا من عهدهم ، وحساب أمهم على الله ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [ الرعد : ٤٠ ] ، وقال : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [ هود : ١٢ ]

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سُبْحَانَكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرَفُونَهَا ﴾ : أى : لله الحمد الذى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والإعذار إليه ؛ ولهذا قال : ﴿ سُبْحَانَكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرَفُونَهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّهِمْ آيَاتِهِ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ حَتَّىٰ يَتَذَكَّرَ لِقَوْمٍ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [ فصلت : ٥٣ ] . وقوله : ﴿ وَمَا رَأَيْتُ بِغَالِبٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ : أى : بل هو شهيد على كل شىء . وقد ذكر عن الإمام أحمد أنه كان ينشد هذين البيتين ، إما له أو لغيره

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقْلُ      خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَىٰ رَقِيبُ  
وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ سَاعَةً      وَلَا أَنْ مَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ يَغِيبُ